

«القدس في نظر الأندلسيين» والمغاربة خلال العصور الوسطى

د. علي أحمد

(سوريا)

مقدمة :

إنّ الحديث عن مدينة بيت المقدس في هذه الأيام بالذات، يعني أشياء كثيرة تبدو في غاية الأهمية. يأتي في مقدمة هذه الأشياء أنّ بيت المقدس، جرحت منذ أعوام طويلة، جرحها الغاصبون الصّهاينة ووضعوها في أسرهم الرّهيب، فلم يندمل جرحها حتّى اليوم، ولن يندمل حتّى تعتق من الأسر بجهود المخلصين من أمّتنا العربيّة، الذين نجحوا في الماضي في تخليص هذه المدينة المقدّسة من أسر الصّليبيين. كما أنّها تشغل مكانة خاصّة على الصّعيد الدّيني عند جميع المسلمين، ذلك لأنّها تضمّ في حناياها أقدس ما يقدّسه المسلمون بعد الحرمين الشّريفيّن في مكّة المكرمة والمدينة المنورة : المسجد الأقصى، الذي شرّفه الله تعالى بحادثة الإسراء والمعراج، هذا المسجد الذي كان إلى وقت قريب مقصدا لأعداد هائلة من الحجاج من مختلف البلدان والأقطار. وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن زيارتهم له تجعلهم يطمئنّون أنّ حجّهم مقبول ومبرور، لذا نراهم ينطلقون منه إلى مكّة المكرمة والمدينة المنورة. من هنا تأتي أهمية التذكير بمدينة القدس الشّريف، خاصّة وأنّ الصّهاينة يخطّطون لإزالة المسجد

الأقصى الشريف، بحجة أنه أقيم مكان هيكل سليمان المزعوم، وإذا نجحوا في ذلك فيكونون قد وجهوا طعنة قاسية لكل العرب والمسلمين في صميم حياتهم الدينية المقدسة، ومن يعلم أنهم سيعمدون بعد ذلك إلى إزالة غيره من الأماكن المقدسة الأخرى، التي لا توازيه في طبيعة الحال. حتى لا نصل إلى هذه الكارثة المؤثرة، فإنه يتوجب علينا نحن العرب خاصة والمسلمين المخلصين عامة، أن نستفيق من نومنا العميق وسباتنا الطويل، قبل أن تقع المأساة الكبرى، فيغدو أمر المطالبة بالأراضي الفلسطينية العربية من الأمور المتعذرة إلى حد كبير، ولا سيما أننا نمثل الفريق الأضعف في ميدان الصراع على هذه المسألة. يضاف إلى ذلك أن كل الأمم الحية، تستغل في كثير من الأحيان بعض مقدساتها الدينية للحصول على مكاسب وطنية معينة، مع أنه كثيرا من هذه المقدسات ليس لها وجود على أرض الواقع، كما هو حال الصهاينة في فلسطين، الذين يدعون ظلما وبهتاناً، أن مكان الأقصى الشريف، هو مكان هيكل سليمان المزعوم، ومع ذلك فمازال معظم العرب والمسلمين، يتفرجون من بعيد على كل الذي يجري من أخطار على مدينة القدس الشريف، وكأن الأمر لا يعينهم في شيء من قريب أو بعيد.

في نهاية المطاف نقول : إن الحديث عن مدينة بيت المقدس يعني توجيه رسالة إلى أجيالنا القادمة وجيل الشباب المعاصر، هذه الأجيال التي لا تعرف الكثير عن قدسية هذه المدينة العربية الحزينة وعظمتها، وذلك لقلة ما يكتب عنها وندرته رغم أهميتها وخطورتها وقدسيتها وموقعها في قلب الوطن العربي الكبير.

في الصفحات التالية، يتجسد موقف الأندلسيين والمغاربة الرائع من مدينة بيت المقدس، لقد نظروا إليها نظرة واقعية ووطنية، واعتبروها من أهم مدن العرب والإسلام في العصور الوسطى، وخاصة أثناء الاحتلال الصليبي وبعده.

قبل سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين، كانت نظرة الأندلسيين والمغاربة إليها، تختلف عن نظرهم بعد وقوعها في أيديهم. ففي الفترة الأولى كانوا ينظرون إلى القدس

نظرتهم إلى مدينة مقدّسة من واجبهـم زيارتها والتّبرّك بما فيها من مشاهد إسلاميّة مقدّسة، في مقدّماتها المسجد الأقصى وبعض المشاهد الأخرى. تكوّنت هذه القدسيّة لديهم من خلال الأحاديث النبويّة الشّريفة، التي صرّح بها الرّسول العربي الكريم في خصوص هذه المدينة. وقد تنوّعت هذه الأحاديث من حيث مقصدها العام، فمنها ما حضّ على زيارتها، ومنها ما حضّ على الإقامة بها. من هذه الأحاديث تلك التي تجعل القدس عامل جذب للمغاربة للمرور والإقامة فيها أمداً معيّناً، حيث يأخذون العلوم الدّينيّة، وخاصّة ما ينصّ على فضل الصلاة في المسجد الأقصى، مثل الحديث الذي يقول: «لا تشدّ الرّحال إلّا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»⁽¹⁾. إنّ المشقّة التي كان يتحمّلها القادم إلى المسجد الأقصى، كانت تهون بالنّسبة إليه من خلال الأمل في اكتساب الثّواب والمغفرة بالصلاة فيه، وهناك حديث آخر يقول: «أنتوه فصلوا فيه فإنّ كلّ صلاة فيه كألف صلاة»⁽²⁾، لأنّ في هذه الصّلاة غفران مضاعف للذنوب وتكفير قاطع عنها، كما هو وارد في الحديث الشّريف، الذي يقول بصراحة: «من خرج إلى بيت المقدس لغير حاجة إلّا للصّلاة فصلّى فيه خمس صلوات صباحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاء، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمّه»⁽³⁾. طبق الأندلسيّون والمغاربة مضمون هذه الأحاديث وأخذوا بها، مثل إبراهيم بن حارث القرطبي، الذي جاء إلى بيت المقدس سنة 391هـ / 1001 م قبل وفاته بثلاث عشرة سنة⁽⁴⁾. كما طبقوا مضمون أحاديث نبويّة أخرى دعت وشجّعت

(1) مجير الدّين الحنبلي - الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ج I د. ت ص 20.

(2) مجير الدّين الحنبلي - المصدر السابق ج I ص 208.

(3) مجير الدّين الحنبلي - المصدر السابق ج I ص 207.

(4) ابن القوطيّة - تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق عبد الله أنيس الطّباع. بيروت. 1907. ص 208.

على المجاورة والإقامة في بيت المقدس، والانطلاق منها لأداء فريضة الحج، وربطت هذه الأحاديث بين الحج وبين زيارة بيت المقدس، فليكون الحج كاملاً فإنه من المستحسن الانطلاق من بيت المقدس كما في الحديث القائل: «من أهلّ بحجٍّ أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة» (5). ومن المغاربة الذين طبقوا ذلك على سبيل المثال علي بن أحمد الكناني، وإسماعيل بن محمد الأنصاري الأندلسيان (6). وفي بعض الأحيان كانت تتاب بعض الأتقياء من الأندلسيين والمغاربة حالة نفسية، تعكس مدى تأثرهم بهذه الأحاديث عن بيت المقدس، وخير مثال على ذلك ما حدث مع محمد بن عمر الشَّهير بابن الفخَّار، ففي حجّه الأول رأى فيما يرى النائم، أن ملكاً من الملائكة يقول له: «ابق مجاوراً إلى موسم قابل، فإنه لم يقبل حجاً هذا العام، فارتاع لما رآه، وأقام بمكة مجتهداً في عمله، وخرج إلى المدينة المنورة فزار قبر النبي، وجعله وسيلة إلى ربّه ثم صار إلى بيت المقدس فتعبده فيه زمناً ثم انصرف إلى مكة وحضر موسم الحجّ الثاني، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام في أحلام نومه، كان يسلم عليه ويصافحه ويبتسم إليه ويقول له، «يا محمد حجك مقبول أولاً وآخرًا يرحمك الله» (7). وهناك أحاديث أخرى كثيرة، تشجّع بحرارة على المجاورة والإقامة في بيت المقدس (8). لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هل بقيت هذه العوامل، التي يمكن أن نسميها (العوامل الجازية) هي نفسها، أم أنّ عوامل أخرى استجدت فأضيفت إليها، وخاصّة في الفترة

(5) مجير الدين الحنبلي - المصدر السابق ج 1 ص 207.

(6) المقرئ التلمساني - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 2 تحقيق إحسان عباس بيروت 1968 ص 124.

(7) ابن بشكوال - كتاب الصلّة ج II طبعة الدار المصرية للتأليف والنشر. القاهرة 1966 ص 511.

(8) انظر هذه الأحاديث. مجير الدين الحنبلي - ج 1 ص 211.

انتي تلت نهاية القرن 11/5. بعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس ؟ للجواب عن هذا السؤال لابد من القول : إن العوامل القديمة التي تجلّت بتأثير الأحاديث النبوية، لم تبقى الوحيدة، التي تثير في المغاربة والأندلسيين الشوق وحبّ الزيارة لبيت المقدس، بل أضيفت إليها عوامل أخرى زادت في حدّة تأثيرها. فمن المعروف أنّ دولة الأيوبيين والمماليك التي اجتذبت إليها الأندلسيين والمغاربة ضمت كلا من مصر والشام، أي أن فلسطين وبيت المقدس بوجه خاص، قد أصبحتا في قلب هذه الدولة، يضاف إلى ذلك أنها كانت ميدان فعالية أساسية بالنسبة إلى الدولة الأيوبية والمملوكية، لأنها ساحة الجهاد ضدّ الصليبيين، ممّا جعل العوامل التي تجتذب المغاربة والأندلسيين تزداد وتتطور، لأنّ الأهمية العسكرية أضيفت الآن إلى الأهمية الدينية، وازداد تأثير هذه الأهمية بفضل رواج أدب من نوع جديد، هو أدب تقديس الأماكن المقدسة المحتلة، وشغلت مدينة بيت المقدس المرتبة الأولى في هذه العملية انطلاقاً من مكانتها الدينية، وقامت حركة التقديس عندما أخذت الأخبار تنتشر في أوساط الناس عن احتواء القدس الشريف لأضرحة بعض الأنبياء وقبورهم. وأقدم من كتب في هذه المسألة، المؤرّخ الدمشقيّ ابن العلاني، الذي تحدث عن الأحداث التي شهدتها وعاصرها، والتي أدرجها في الحديث عن وقائع سنة 513 هـ / 1120 م . فذكر أنّه ورد في هذه السنة خبر من بيت المقدس عن ظهور قبور الخليل ولديه إسحاق ويعقوب، وهم موجودون في مغارة بأرض القدس، وكأنّهم أحياء لم تبل أجسادهم ولا رمّ لهم عظم. (9). وقد ظهر أنّ هذه الأخبار بدقائقها، أصبحت جزءاً من النّتاج الثقافي المتبادل على امتداد البلدان التي تسودها الحضارة العربية الإسلامية، بما في ذلك الأندلس والمغرب، حيث كانت تعمل عملها لدى الناس هناك، وخاصة الأتقياء والزّهّاد والصوفيّة منهم. وتشير بعض القصص المسجّلة في كتبهم إلى المدى الذي وصل إليه الإعلاء من مكانة بيت المقدس والمسجد الأقصى. ففي ترجمة يوسف بن عبد العزيز الأندلسي، يورد ابن الأبار في

(9) ابن العلاني - ذيل تاريخ دمشق طبعة بيروت 1907 ص 202.

كتابه (المعجم) رواية بسند طويل عن أبي الزاهرية الذي قال : « أتيت بيت المقدس أريد الصلاة فدخلت المسجد وغفلت سدنة المسجد حتى أطفئت القناديل وانقطعت الرجل وغلقت الأبواب، فبينما أنا على ذلك، إذ سمعت حفيفا له جناحان قد أقبل وهو يقول، سبحان الدائم القائم، سبحان الحي القيوم سبحان الملك القدوس، سبحان ربّ الملائكة والروح، سبحان الله وبحمده، وسبحان العليّ الأعلى، سبحانه وتعالى، ثم أقبل حفيف بعده يتأوّه ويقول مثل ذلك، ثم أقبل حفيف بعد حفيف يتجاوبون بها، حتى امتلأ المسجد، فإذا بعضهم قريب مني فقال : «آدمي؟ قلت نعم، قال : «لا روع عليك» (10). شكلت هذه القصص، التي أحاطت بالقدس وفلسطين، خلال الغزو الصليبيّ دافعا جديدا، كان له أثره الفعّال في زيادة الرغبة والشوق لزيارتها والإقامة بها، لأنّ القدسية غدت أعظم من ذي قبل، وأصبحت زيارتها لا تقتصر على كسب ثواب الصلاة فحسب، إنّما كانت تهدف إلى جانب ذلك زيارة المشاهد الموجودة فيها، وتلك التي حولها في مواقع أخرى من فلسطين. ودليل ذلك أنّ الأندلسيين والمغاربة، كانوا من أوائل المدافعين عن المسجد الأقصى غداة دخول الصليبيين إلى بيت المقدس سنة 492 هـ / 1099 م، فقتل منهم عدد كبير في داخل المسجد وعلى أبوابه، وقدر هذا العدد بنحو ثلاثة آلاف رجل من المقيمين بالمدينة والمجاورين بالمسجد الأقصى (11). وقد أثار احتلال مدينة بيت المقدس حميّة عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين ورجال الوطنية، وأدّى بهم ذلك إلى تضمين قضية تحرير القدس في تفسير بعض الآيات القرآنية، كما هو حال الفقيه أبي الحكم بن برجان الأندلسي، الذي قال عنه المؤرخ الدمشقيّ أبو شامة : إنّهُ قام بتفسير القرآن كما أخبره الشيخ مجد الدين بن جهل الحبلي، الذي وجد فيه تفسير قوله تعالى : « أَلَمْ غُيِّبَتِ الرُّؤُومُ » على النحو التّالي : إنّ الرُّومَ (12) سيغلبون في رجب سنة ثلاث

(10) ابن الأبار : المعجم في أصحاب أبي علي الصّدفي ص 214 و 215.

(11) مجير الدين الحبلي - الأئس الجليل ج 1 ص 272.

(12) يقصد بالرُّوم هنا المحتلّين الصليبيين.

وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقدس ويعود لأصحابه العرب المسلمين (13). وقد وقف على ذلك صلاح الدين الأيوبي واستحسن ذلك .

وقد لعب بعض الأندلسيين والمغاربة دورا سياسيا بالغ الأهمية فيما يخص بيت المقدس، وكان من أبرز هؤلاء وأشهرهم نزيل بيت المقدس وخطيب مسجدها أبو الحسن علي بن محمد المعافري الأندلسي المتوفى سنة 605 هـ / 1204 م، الذي عكس من خلال خطبه الدينية، السياسة العامة للدولة، التي رسخها صلاح الدين الأيوبي . وقد اعتبر المعافري أن الصراع مع الصليبيين في وجه من وجوهه على الأقل صراعا وطنيا، يجب على الجميع أن يساهم فيه من مسلمين ومسيحيين، وهي السياسة نفسها التي كان ينتهجها صلاح الدين الأيوبي، بدليل أنه قرب إليه أحد زعماء الكنيسة، على اعتبار أن الكنيسة الغربية، كانت وراء الغزاة الصليبيين، فاستخدم يوسف بن بابيطة مستشارا له (14). ويعد دور المعافري هذا من أقدس وأجل المهمات الفكرية والثقافية والسياسة في كل زمان ومكان، خاصة وأنه كان يدعو إلى إنقاذ قطعة غالية وعزيزة من أرض الوطن العربي الكبير، والحفاظ على توحيد الكلمة والجهد في وجه الغزاة الصليبيين . كما شارك كثيرون منهم في العمليات الحربية ضد الصليبيين، منذ بدأ نور الدين زنكي بجهاز الجيوش لتحرير القدس، نذكر من هؤلاء يوسف بن دوباس المغربي الغندلاوي، الذي كان يتوقد حماسا واندفاعا لخوض الحرب ضد الصليبيين، على الرغم من تقدمه في السن، فاندفع للقتال غير عابئ بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق آنذاك معين الدين أنر، إذ نصحه بعدم الاشتراك في الحرب، ولكنه رد على حاكم دمشق قائلا: « قد بعت واشترى، فوالله لا أقبله ولا أستقبله وتلا الآية الكريمة : إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » وظل يقاتل رحمه الله حتى استشهد، كان

(13) أبو شامة المقدسي - عيون الروضتين ج 2 ص 106 - 107 .

(14) انظر تراث الإنسانية مجلد 2 ص 794.

ذلك سنة 543 هـ / 1149 م وحمل جثمانه إلى دمشق فدفن بمقبرة الباب الصغير⁽¹⁵⁾. وكان يوسف بن دوباس هذا يلقَّب بأبي الحجاج المغربي، قدم إلى بلاد الشام بعد أن سمع باستعداد نور الدين زنكي لتحرير بيت المقدس، فسكن بلدة بانياس في الجولان مدة، ثم انتقل إلى دمشق، وبقي فيها يدرس بمذهب الإمام مالك، قصَّدت بكتابه الموطأ، حتَّى استشهد⁽¹⁶⁾. ويعد الغندلاوي من الشخصيات المغربية، التي طار ذكرها، وخلد على صعيد الشام عامة ودمشق خاصة، فقد ذكر الذهبي من مؤرّخي القرن 8 / 14، أن قبره على عهده كان يزار ويتبرك به، على الرّغم من مضي أكثر من مائتي عام على وفاته⁽¹⁷⁾. وهناك أدلة أكثر وضوحاً وأهميّة على اشتراك المغاربة والأندلسيين في الحرب ضدّ الصليبيين من أجل تحرير مدينة القدس، منها ما يظهر من الملاحظة التي كتبها الرحالة ابن جبير الأندلسي خلال زيارته لبلاد الشام في الرّبع الأخير من القرن 12/6. وفي هذه المرّة لم تتخذ مقاومة الأندلسيين للصليبيين بالشّام شكلاً فردياً، وإنّما اتخذت صورة جماعيّة، الأمر الذي جعل الصليبيين في المغرب يلجؤون إلى اتّخاذ إجراءات مضادّة للأندلسيين، تجسّدت بفرض ضريبة عليهم دون غيرهم، وذلك من جراء اشتراكهم مع العرب المشاركة ضدّهم. يقول ابن جبير عندما زار حصن تبنين: «وكان مكانا لتمكيس القوافل ولا اعتراض على غيرهم، وسببها أنّ طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهروا واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسيّة، ألزموها رؤوسهم، فكلّ مغربي يزن على رأسه الدّينار

(15) ابن العَلّاني-ذيل تاريخ دمشق ص298، ياقوت الحموي-معجم البلدان ج15 ص277-278 مادة

فندلاو - العدوي - الزيارات تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة دمشق 1956 ص 62 .

(16) سبط ابن الجوزي-مرآة الزّمان في تاريخ الأعيان-القسم الأول من الجزء الثامن طبعة أولى حيدر أباد الدكن الهند ص 200 : 201 وانظر أيضاً أبو شامة الرّوضتين في أخبار الدولتين النّوريّة والصّلاحيّة ج 1 ص 52.

(17) الذهبي - العبر في خبر من غير ج 4 تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة الكويت 1962 ص 195.

المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج : « إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالهم ولا نرزئهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا، وتألّبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنهم » (18).

وقد استمرّ دور الأندلسيين والمغاربة في الجهاد طوال الفترة التي تلت انتهاء حكم نور الدين زنكي. ويمكن القول : إن أعدادهم ازدادت بشكل كثيف على عهد صلاح الدين الأيوبي، فظهرت مشاركتهم على وجهين الأول كمحاربين أساسيين، والثاني كمراقبين للجيش يقومون بتقديم الخدمات المختلفة التي لا تقل أهمية عن غيرها في ميدان الحرب. ففي المجال الأول نستشهد بالحادثه التي ذكرها العماد الكاتب الأصفهاني في كتابه الموسوم بـ (الفتح القسي في الفتح القدسي) حيث يظهر من خلالها قيمة الدور، الذي شغله هؤلاء المغاربة على الصعيد العسكري، كمقاتلين أشداء نذروا أنفسهم لتنفيذ مهام في غاية الخطورة، على طريق تحرير بيت المقدس. من ذلك أنه حدث سنة 587 هـ / 1191 م في أثناء حصار العرب لمدينة عكا، أنه جاء رسول من قبل أحد الصليبيين ومعه أسير مغربي، قدّمه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي على سبيل الهدية، فاستقبل الأسير بحفاوة بالغة وتقدير عظيم، الأمر الذي يدل على مدى إعجاب صلاح الدين الأيوبي بالمغاربة والأندلسيين وتقديره لجهودهم في الحرب التي خاضها ضد أعدائه الصليبيين (19). أما الأمثلة في المجال الثاني فهي متعدّدة، نذكر منها على سبيل المثال أن قسماً منهم لم يشتركوا على هيئة محاربين كجنود يحملون السلاح، وإنما قاموا بمرافقة الجيش الذي كان يقيم في مناطق قريبة من القدس وعكا وغيرهما من مدن فلسطين التي كانت ترزح تحت احتلال الصليبيين. هذا القسم

(18) انظر رحلة ابن جبير ص 274.

(19) العماد الكاتب الأصفهاني - الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبح بدون تاريخ الطبعة ص 502.

من المغاربة والأندلسيين قَدَمَ خدمات كبيرة، ساهمت إلى حدٍّ كبير في رفع معنويات الجيش القتالية، وأذكت في الجند الروح القتالية العالية. وقد اشغلت أعداد كبيرة منهم بتحضير الطّعام وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال وتوفير أسباب النظافة العامة التي تضيف على النفس الإنسانية نوعاً من البهجة والسرور. ويمكن تقدير عدد هؤلاء الأندلسيين والمغاربة بأكثر من ثلاثة آلاف رجل (20) لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية التي نالها المغاربة والأندلسيون في القدس بعد تحريرها على أنها اعتراف بجهودهم وتعبير عن المكافأة على خدماتهم، والرغبة في استمرار هذه الخدمات، بالإضافة إلى ما قام به صلاح الدين الأيوبيّ تعبيراً عن ذلك. وفي هذا الميدان يمكن أن نذكر أيضاً تلك الخدمات الجليلة، التي قدّمها أطباء أندلسيون لصلاح الدين وجيشه، هذا الجيش الذي وقف كتلة واحدة شامخة ضدّ الصليبيين في بيت المقدس وغيرها. فمنذ النصف الأول من القرن 12/6، بدأ الأطباء الأندلسيون المشاهير يتوافدون على دمشق بعد أن سمعوا باحتلال بيت المقدس ومدن فلسطينية أخرى، وكأنهم كانوا يشعرون أنّ من واجبهم وهم من بلاد اعتاد أهلها على محاربة الصليبيين باستمرار المساعدة في تحرير بيت المقدس والمدن الأخرى، والدّود عن دمشق وغيرها من مناطق بلاد الشام. ومن هؤلاء الأطباء أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر الباهلي المولود بمدينة المريّة بجنوب الأندلس أو بمدينة مرسية في شرق الأندلس سنة 486 هـ / 1076 م، وقد درس الطبّ في الأندلس ثمّ بمصر حتّى اشتهر كطبيب معروف. وفي بداية أمره توجّه إلى بغداد، وفيها شغل طبيباً. البيمارستان الذي كانت تحمل عقاقيره وأدواته في المعسكر السلطانيّ على أربعين جملاً (21) ولمّا سمع

(20) المقرئزي-السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول - القسم الأول تحقيق مصطفى زيادة طبعة القاهرة 1964 ص 64.

(21) القفطي - إخبار العلماء بأخبار الحكماء عنى بنشره محمد أمين الخانجي طبعة مصر 1326 هـ ص 264، ابن قاضي منبهة طبقات اللّغويين والنّحويين مخطوطة الظاهرية ص 347. ابن خلكان وفيات الأعيان ج3 تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت 1970 ص 123-124.

باحتيال الصليبيين لبيت المقدس وتهديدهم لمدينة دمشق غادر بغداد، وأقام بدمشق يداوي النَّاس بَدَكَانَ عند باب جيرون بالقرب من المسجد الأموي الكبير حتَّى وفاته في سنة 549 هـ / 1155 م ⁽²²⁾. وكذلك فعل ابنه أبو المجد محمد بن عبد الله الباهلي الملقَّب بأفضل الدولة، وتفوق على والده في الخدمات الجليلة التي قدَّما للمجتمع الشَّامي في أحلك الظروف وأصعبها، لأنَّه ابتعد عن الأدب الذي شغل حيزًا هامًا من حياة والده، فصار في علوم الطِّبِّ من أحقُّ أطباء زمانه، الأمر الذي جعل نور الدين زنكي، يعتمد كـمـسـوـول أول عن إدارة البيمارستان الذي أنشأه بدمشق خلال السَّنـوات الأولى من النِّصـف الثَّاني للقرن 12/6، وقد أدَّى خلال حياته، التي انتهت في الرِّبع الثَّالث من القرن 12/6 أو قبل ذلك بسنوات قليلة، خدمات رائعة في ميدان الطِّبِّ، إذ كان عمله اليومي مقسمًا إلى ثلاث فترات، خصَّص الأولى لزيارة مرضى البيمارستان سابق الذِّكر، وخصَّص الثَّانية لزيارة مرضى القلعة من الحُكَّام وأتباعهم، وخصَّص الثَّالثة للتَّدریس في إيوان البيمارستان النُّوري ⁽²³⁾. من هؤلاء الأطباء أيضًا عبد المنعم الجلياني نسبة إلى جليانة على مقربة من غرناطة في جنوب شرق الأندلس المتوفَّى بدمشق سنة 603 هـ / 1207 م. وكان قد اشتغل منذ وقت مبكر بالطِّبِّ والأدب، وتفوق بشكل ملحوظ، ثمَّ رحل إلى المغرب ومنها إلى بغداد حيث أطلع على خزائن الكتب الطِّبِّية الغنيَّة. ولما سمع بما كان يجري في الشَّام من حرب ضد الصليبيين، ترك بغداد متوجِّهاً إلى دمشق، حيث عمل طبيباً رئيساً في البيمارستان السُّلْطاني في السُّفر والحضر أيام صلاح الدِّين الأيوبي، فظلَّ هكذا حتَّى وافته المنية ⁽²⁴⁾.

(22) المقرِّي - نفح الطيب ج 2 ص 234.

(23) الصفدي - الوافي بالوفيات ج 4 طبعة دمشق 1959 ص 24.

(24) ابن سعيد المغربي - الغصون الیانة في محاسن شعراء المائة السابعة تحقيق إبراهيم الأبياري طبعة مصر بدون تاريخ ص 104 - 106. ابن أبي أصيبعة طبقات الأطباء ج 2 ص 157 - المقرِّي المصدر السابق ج 3 ص 392.

استمرّ المغاربة والأندلسيون على هذا الطريق في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين وتحرير بيت المقدس، ففي عهد الأفضل بن صلاح الدين، لاقى المغاربة والأندلسيون عناية فائقة منه جزاء طيبا على خدماتهم. ففي أيام سلطنته وحينما أصبح قادرا على منح الإقطاعات، وقف على فقهاء المالكية المدرسة الأفضلية، وبجوارها أوقف قطاعا من المدينة يقع بجوار المسجد الأقصى وسوره من جهة الغرب علما بأن المسجد الأقصى يقع في الجنوب الشرقي من مدينة القدس، وأضحى معروفا بحارة المغاربة التي كانت وقفا كما يقول صاحب كتاب (الأنس الجليل) على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم⁽²⁵⁾. وكان للمغاربة جامع تقام فيه صلاة المالكية بداخل المسجد الأقصى، وكان هذا الحيّ أو الحارة تتضمّن مع الزّمن بالمغاربة الوافدين، منهم الميسورون ومنهم الفقراء أيضا. وقام الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المتصوف بتعمير زاوية بأعلى الحارة، أنفق عليها من ماله، ووقفها على الفقراء والمساكين سنة 703 هـ / 1304 م. وإذا كان عمل الأفضل هذا تجاه المغاربة نوعا من المكافأة على خدماتهم في جيش أبيه، فإنّ ظروفه بعد وفاة أبيه، تجعل من الاعتقاد أنّه فعل ذلك بدافع من الاستعانة بقوتهم العسكرية للدفاع عن القدس. فالمدينة فقيرة ولا تكفي وارداتها وواردات الأراضي التابعة لها للقيام بكلفتها، ممّا أدى إلى تخصيص ثلث وارد إقطاع نابلس لها. وكذلك فإنّ ضياء الدين بن الأثير وزير الأفضل، أقنعه بالتنازل عن القدس، لأسباب منها التخلّص من النّفقة عليها. لكن المكانة الدّينية للمدينة جعلها قوّة معنويّة لمن تتبّعه. وربّما كان هذا أيضا من جملة الأسباب التي جعلت نواب الأفضل في فلسطين وعلى رأسهم عماد الدين بن المشطوب مقطع نابلس، يعرضون على سيدهم الرّفق بها، ويتعهدون بالقيام بأودها وأود رجالها. كما أنّها كانت حتّى ذلك الوقت هدفا رئيسيا للصليبيين، وكان بيدهم رأس جسر مناسب للهجوم عليها، يتمثّل في ميناء عكا الحصين. وكان على الأفضل والمشيرين عليه

(25) مجير الدين الحنبلي - الأنس الجليل ج 2 ص 397.

والمحيطين به أخذ هذا التهديد بعين الاعتبار، خاصة وأن الأفضل لم يكن حاكم الإمبراطورية الأيوبية فعلياً كأبيه، بل إن سلطانه اقتصر على الشّام بكل ما حفلت به آنذاك من عوامل تمنع من قيام سلطة مركزية بها، كما أنها كانت عاجزة عن تمويل جدّ كثيف، فقد كانت غير قادرة على تمويل أكثر من أربعة آلاف جندي نظامي. وبهذه القوة الضئيلة كان عليه مجابهة الخطر الصليبي، وكذلك خطر أفراد أسرته المستضعفين له. وكان أخوه العزيز صاحب مصر على رأسهم في الظاهر. ضمن هذه الأوضاع يبدو منطقياً الافتراض بأن الأفضل، كان يرى في المغاربة والأندلسيين قوة عسكرية مناسبة، يمكنه أن يفيد منها في الدفاع عن القدس على الأقل. ومما يؤكد اشتراك المغاربة في الحرب مع صلاح الدين بأعداد وافرة أن الجيش النظامي لم يكن يشكل كلّ القوة المحاربة ولا حتّى النسبة العددية الكبرى. وقد بيّن الإنكليزي (جب) أن عدد الجند النظامي لدى جيش صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين، لم يكن يتجاوز الأربعة عشر ألف مقاتل⁽²⁶⁾ أما المحاربون الآخرون فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم، ومنهم الأندلسيون والمغاربة من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتّب. ولم يكن الإفرنج على ما يبدو غافلين عن هذه القيمة التي يشغلها المغاربة عند حكم الشّام. فقد حدث في سنة 626 هـ / 1230 م، أن حمل عدد كبير من أسرى جزيرة ميورقة إلى الساحل الشّامي، حيث استفكّوا وقدموا إلى دمشق. يقول أبو شامة في الذّيل على الرّوضتين في صدد حديثه عن سنة 627 هـ / 1230 م: «في هذه السنة جاء الخبر بأنّ الفرنج استولوا على جزيرة ميورقة، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا كذلك، وقدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشّام، فاستفكّ منهم طائفة، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم»⁽²⁷⁾. فهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى التقدير الذي أبداه الأيوبيون للمغاربة لما قاموا به من أعمال مميّزة ومخلصة خلال الحرب مع

(26) .ENCYCLOPEDIA OF ISLAM. VOL 1. 797-798

(27) أبو شامة - الذّيل على الرّوضتين ص 159.

الصليبيين، يضاف إلى ذلك أنهم قوة جديدة، تضاف إلى الموجودين القدماء. كما اشتغل قسم من هؤلاء المغاربة في عدد من الميادين العلمية والإدارية في القدس بعد تحريرها، وخاصة في حقل القضاء فقد عملوا جاهدين على استحداث منصب قاضي المالكية بهذه المدينة ونجحوا في ذلك، فكانت بيت المقدس هي المدينة الرابعة بعد القاهرة ودمشق وحلب التي استحدثت فيها هذا المنصب، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على وجود جالية مغربية أندلسية فيها (28). وقد شغل هذا المنصب عدد من المغاربة، توفرت في بعضهم الشروط الضرورية للقاضي، ولم تتوفر ببعضهم الآخر، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال القاضي عيسى بن محمد المغربي الشحمني الملقب بشرف الدين أبي الروح الذي بقي في منصبه بصورة مستمرة حتى سنة 854 هـ / 1451 م، ومارس الحكم خلال هذه الفترة بكل إخلاص وعفة واستقامة، لا يحابي أحدا، ولا يخاف في الله لومة لائم، يدعمه في ذلك قوة شخصية وصلابة مواقف، وعدم التراجع عنها، إضافة إلى علمه ومعرفته بشؤون المذهب المالكي والشريعة الإسلامية، ومن مواقفه الرائعة ما حدث له مع نائب القدس مبارك شاه : كان هذا الأخير قد قرّر قتل أربعة من الفلاحين، وكلّفه بشنقهم بتهمة السرقة واللصوصية، فسأله القاضي المذكور، عما إذا كانت السرقة قد ثبتت عليهم بطريقة شرعية ؟ فأجابه النائب : نحن لا نحتاج إلى إثبات شرعي، فأجابه القاضي : لا يمكن تنفيذ ما أمرت إلا بعد أن تثبت الإدانة، لكن النائب تشدّد وألحّ على قتلهم، فأجابه القاضي بقوله : «والله لو قتلهم بحضوري لكنت أقتلك بيدي، وأعلّقك إلى جانبهم...» فتراجع النائب عن إصراره (29). ومنهم محمد بن سعيد المغراوي الملقب بشمس الدين، الذي اشتغل مدة بدمشق، ثم انتقل إلى القدس، ليشغل قاضي قضاتها منذ وفاة القاضي السابق الذكر حتى سنة 873

(28) استحدث منصب قاضي قضاة المالكية بالقاهرة ودمشق سنة 664 هـ وبحلب سنة 747 هـ وبالقدس بعد حلب بسنوات قليلة.

(29) الحنبلي - الأنس الجليل ج 2 ص 585.

هـ / 1469 م ⁽³⁰⁾. والقاضي حميد الدين محمد بدر الدين المعروف بابن المغربي، الذي تولّى قضاء المالكية بالقدس والرّملة في وقت واحد، وهو أول قاضٍ من الأندلسيين والمغاربة جمع بين قضاء مدينتين في وقت واحد، لكن ولايته لم تدم طويلا في هاتين المدينتين، حيث عزل في أواخر سنة 874 هـ / 1470 م، وتوجّه إلى القاهرة، ثمّ كلف بقضاء طرابلس الشام حتّى وفاته في سنة 878 هـ / 1474 م ⁽³¹⁾. وربما كان آخر القضاة الأندلسيين في مدينة القدس، العلامة الغرناطي شمس الدين محمد بن علي الأزرق المغربي الأندلسي المالكي، الذي اختلف عن جميع القضاة الأندلسيين في بلاد الشام في ناحية واحدة تجلّت بأنّه كان قاضيا للجماعة في كلّ من مالقة وغرناطة بجنوب الأندلس، قبل أن يأتي إلى الشام. وقد اشتهر عنه التبحّر في العلم وحسن المنظر ووقار الهيئة، خرج من غرناطة على اثر سقوطها ليستنفر ملوك العرب، فتوجّه إلى المغرب وطلب من ملوكها نجدة بلاده، لكن محاولته هذه باءت بالفشل، فتوجّه إلى مصر، حيث التقى بالسلطان الأشرف قايتباي، وطلب منه نصرة العرب في الأندلس، لكن الثّابت أنّ هذا الطلب لم يسفر عن نتيجة إيجابية كما حصل في المغرب . عند ذلك أثر البقاء في الشرق، وطلب من السلطان السّابق الذّكر تأمين عمل له، فولاه قضاء بيت المقدس بدلا من القاضي محمد بن مازن الغزي، وباشر عمله في السّادس من شوال سنة 796 هـ / 1491 م وظلّ فيه حتّى السابع عشر من ذي الحجة من السّنة نفسها. وبذلك تكون ولايته أقصروا لاية أمضاها أندلسي مغربي في منصب القضاء، بحيث لم تتجاوز واحدا وستين يوما توفي بعدها متأثرا بمرض مفاجئ ألمّ به، ودفن بماملّا ببيت المقدس، وقد كان مثال العفة والنزاهة ⁽³²⁾.

من ناحية أخرى ركّز الجغرافيون والرحالة المغاربة على زيارة بيت المقدس، في

(30) الحنبلي - الأنس الجليل ج 2 ص 586.

(31) المصدر السابق ص 588.

(32) المصدر السابق ج 2 ص 591 - 592.

الفترة التي تلت تحريرها، وكأنهم كانوا يريدون من ذلك التّوبة بمكانة هذه المدينة المقدّسة، وكان في مقدّمهم ابن جبّير الأندلسيّ الذي ذكر أنّ تحرير بيت المقدس كان من أقوى الأسباب التي بعثته على الرّحلة الثّانية إلى المشرق في سنة خمس وثمانين وخمسائة قال: «وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السّلام وزيارة المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجّها وفي شهر واحد منصرفاً»⁽³³⁾ جاء بعده الرّحالة العبدري، الذي بقي ببيت المقدس فترة من الزّمن، وقف خلالها على طبيعة الحركة العلميّة التي كانت سبب الإقامة في كلّ البلدان التي زارها ومنها القدس التي وصفها بقوله: «ولم أر في هذا البلد مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه ولا معنيًا به، إلّا شيخا هو قاضي البلد يلقّب ببدر الدّين واسمه محمّد بن إبراهيم بن جماعة، له مجلس علم يدرس فيه أوّل النّهار...»⁽³⁴⁾. وكذلك قام ابن بطوطة بزيارة القدس، وفعل الشّيء نفسه الرّحالة البلويّ الذي اهتمّ اهتماما خاصّا بالمسجد الأقصى فوصفه، بأنّه من أعظم مساجد الدّنيا، واستغرق في وصفه طويلا، بحيث يمكن القول: إنّ لم يوصف غيره بمثل ماوصفه، فذكر طوله وعرضه وعدد أعمدته ومحتوياته وكلّ ما يتعلّق به⁽³⁵⁾. أضف إلى ما تقدّم فإنّ الأندلسيين والمغاربة، ظلّوا يهتمّون بزيارة بيت المقدس إلى نهاية العصور الوسطى، كأحد الأمكنة العزيزة على المسلمين من النّاحية الدّينيّة، مثال ذلك المفكّر المغربي الكبير عبد الرّحمان بن خلدون المتوفّى في أوائل القرن 15/9، الذي استأذن السّلطان فرج بن برقوق بالقاهرة، لزيارة القدس، فأذن له السّلطان بذلك، فزار المسجد الأقصى ومدفن الخليل عليه السّلام وبيت لحم، ذلك لأنّه كان من الذين يؤمنون بوجوب زيارة القدس، كما هو الحال بالنّسبة إلى مكّة والمدينة في الحجاز⁽³⁶⁾.

(33) المراكشي - الذيل والتكملة سفر 5 و2 ص 605 - 606.

(34) العبدري - الرّحلة المغربيّة ص 230.

(35) انظر عن ذلك رحلة البلوي ص 102 وما بعدها.

(36) ابن خلدون - التعريف بابن خلدون ورحلته ص 180 - 181.

وقد كان المغاربة والأندلسيون، الذين يزورون القدس والشّام. يصطحبون معهم عند عودتهم إلى بلادهم عددا من الكتب التي ألّفت في المشرق عن قدسيّة الشّام وبيت المقدس، وكان القصد منها إثارة الناس وتشجيعهم للاشتراك في عمليّة تحرير القدس وما حولها من مدن فلسطين، وحماية بقية المدن الشّاميّة التي كان يتطلّع الصليبيون لاحتلالها. من هذه الكتب كتاب (ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشّام) لعزّ الدين بن عبد السّلام الملقّب بسلطان العلماء، وكتاب (مثير الغرام في زيارة القدس والشّام) لشهاب الدّين المقدسي، وكتاب (مثير الغرام في زيارة الخليل للتّحري)، وكثيرا ما تأثّر الناس بالدّعاية التي تضمّنتها هذه الكتب وأمثالها⁽³⁷⁾. بقي أن نقول : إنّهُ إلى جانب بيت المقدس، حظيت مدن فلسطينيّة باحترام كبير من قبل الأندلسيين والمغاربة، كمدينة الخليل وعسقلان وعكا وطبريا وغيرها، لكن هذا الاحترام على الرّغم من أهميّته البالغة، لا يمكن مقارنته أو وضعه في مقابل ذلك بالاحترام والتّقديس الذين حظيت بهما مدينة بيت المقدس. وقد جاء هذا الاحترام من أنّ المدن سابقة الذّكر، تحتوي على عدد كبير من المقدّسات الإسلاميّة التي يجلبها المسلمون ويرغبون في زيارتها، مثل قبور الأنبياء ومشاهد الصّالحين، والمساجد المقدّسة⁽³⁸⁾.

وبالجملة فقد كان موقف الأندلسيين والمغاربة من مدينة القدس الشّريف موقفا رائعا ومسؤولا، جسّدته التّضحيات الكبيرة والسّخية التي قدّموها على مدى سنين طويلة وفي مختلف الحقول والميادين، يحدهم في ذلك شعورهم الوطني الصادق، بأنّ بيت المقدس من المدن العربيّة المقدّسة التي تستحقّ أن تظلّ بعيدة عن الاحتلال والمذلة، لما تمثّله في حياة العرب المسلمين من قيمة روحيّة بالغة الأهميّة. هذه التّضحيات التي قدّمها المغاربة، لم تحدث بفعل تدخّل الحكّام أو سياستهم العامّة، بل كانت عفويّة صنعها الشّعب المغربي لوحده بعيدا عن حكّامه في ذلك الوقت.

(37) نقولا زيادة - دمشق في عصر المماليك طبعة بيروت 1966 ص 212 - 213.

(38) انظر أسماء هذه المقدّسات العديدة - ابن بطوطة - مهذّب رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - طبعة بيروت 1964 ص 56 و61 و704 و779.